International Journal of Education

Publisher
Fakultas Ilmu Tarbiyah dan Keguruan
Universitas Islam Negeri (UIN)
Mualana Malik Ibrahim Malang
Indonesia

2443-0587 - ISSN Online
2528-3979 - ISSN Print

History Article
Received : 16-08-2016
Reviced : 03-09-2016
Accepted : 16-12-2016

dx.doi.org/10.18860/abj.v1i2.3983
http://ejournal.uin-malang.ac.id/index.php/abjadia/article/view/3983

Fadhlalla F.F. Balrammanu
Libya
Universitas Islam Negeri
Maulana Malik Ibrahim
Malang Indonesia

Corresponding Author
Fadallah2013ly@gmail.com

Fadhlalla F.F. Balrammanu

Libya

الجودة التربوية في الإسلام

مستخلص

يتضح أن النظام التربوي الإسلامي له مجموعة من القيم الحاكمة التي تميزه عن غيره من النظم، هذه القيم تنبثق عن الرؤية الإسلامية الشاملة، مما يعني التوافق والتناغم بينها وبين القيم العامة في المجتمع، وهذا سبب فعاليتها، والإسلام كان الرائد الأول والأعظم في وضع وبناء الأسس الصحيحة والسليمة التي تعمل على بناء مجتمع تربوي قوي، لأن المنهج الإسلامي جاء كاملاً شاملاً لكافة مجالات الحياة دون تخصيص أو تحديد، كما أنه وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، وقيمته كذلك هو للفكر التربوي مقوم منضبط بذاته، يمكن أن ينضبط به الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الدواخل والمؤثرات وهو ما يسمي بالتصحيح والتقويم

التربية ، الجودة، التصحيح، التقويم

Abstract

Islam is the first religion pioneering in establishing and building the correct and healthy bases which work towards building a strong educational society. That's because the islamic methodology is complete and comprehensive for all the aspects of life without limitations and boundaries. It has also introduced the steadfast balance that any human being can refer back to whenever there is an emotional or intellectual discrepancy, so matters can be weighed in this balance to see how close or far it is from the truth. This balance as well has a self-evaluation rule in the educational process, as it will discipline thoughts and ideas so they won't be influenced by alien effects and thats what is called redirection and reevaluation.

Education, Quality, Redirection, Reevaluation

مجلة علمية دولية في التربية

Citation: Balrammanu, Fadhlalla F.F.. 2016. الجودة التربوية في الإسلام. *Abjadia: International Journal of Education*, 1 (2), 131 – 163

Abstrak

Islam merupakan ajaran agama yang menjadi perintis dalam membangun basis keilmuan dan pendidikan masyarakat. Hal ini karena metodologi Islam telah lengkap dan komprehensip mencakup seluruh aspek kehidupan tanpa kekurangan dan keterbatasan. Dalam Islam juga dibangun keseimbangan agar manusia dapat mengontrol perbedaan emosional dan intelektual sehingga dapat diukur dalam standar kebenaran. Keseimbangan ini termuat dalam aturan-atiran untuk pelaksanaan evaluasi diri di ranah pendidikan. Dengan demikian, lahir kedisplinan pikiran dan ide-ide agar pemeluknya tidak dipengaruhi efek asing. Inilah disebut dengan redireksi dan reevaluasi.

Pendidikan, Mutu, Redireksi, Reevaluasi

http:// ejournal.uin-malang.ac.id/index.php/abjadia/article/view/3983

مقدمة

يعد مفهوم الجودة قديماً قدم سعي الإنسان في البحث عن أساليب وطرق تطوير كيانه الاجتماعي والاقتصادي إلا أن تفعيل هذا المفهوم تأثر بمتغيرات كل عصر وطبيعته، ومفهوم الجودة مفهوم أصيل في ديننا الإسلامي الحنيف، وينطلق من عموميات كثيرة في ديننا الإسلامي؛ فالجودة مكونة من الدقة والإتقان وهذان المفهومان نجدهما في نصوص كثير في كتاب الله وسنة الرسول صلي الله عليه وسلم. والإسلام دين يقدم إطاراً شاملاً لممارسة الأعمال وحماية حقوق المستهلك يضارع ذلك نابع من أخلاقيات القوانين التجارية المعاصرة، لكنه يتميز عنها بأنه سبقها بخمسة عشر قرناً، فضلاً على أنه من عند الله، بينما تعتبر تلك القوانين ظاهرة حديثة وضعها الناس تحقيقاً لمصالحهم، إضافةً إلى أنه لا توجد مكافأة لمن يلتزم بتلك القوانين، بينما وَعَدَ اللهُ من يلتزم أوامرَه بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، وفيما يتعلق بالبيئة الطبيعية تبيّن أن قيم الإسلام السامية تعكس نظرته المقدسة للعالم الطبيعي، والاعتقاد بكمال الإسلام وشموله لجميع جوانب الحياة، وعلم بالمقاصد الشرعية وكيفية ربطها بالواقع المعاصر.

منهج

هدف هذا البحث لتعريف دراسة التربية من المنظور الإسلامي، ولبيان إضافة بما يتوافق مع معالم الرؤية الإسلامية والسمات الحضارية للمجتمعات الإسلامية، ومحاولة لتقديم ملامح المشهد الإسلامي الأصيل لتحقيق جودة الأداء والإنتاج والحياة المجتمعية عامة للقادة والمسئولين، ذلك المشهد الذي يمكن أن ينطلقوا منه لتحديد منهجيات العمل التربوي في كل الميادين بحضور الشخصية الإسلامية

التي تتفهم دورها الريادي في واقع الحياة على المستوى المحلى والعالمي، ومحاولة للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والإنسانية بما يوفر البديل الإسلامي الصالح لكل زمان ومكان، والذي يحفظ للأمة ثقتها بنفسها وبمنهجها في الحياة. أن للقيم الدينية دوراً هاماً في نجاح ممارسات الجودة، وأن الإسلام يملك رؤيته ومنهجه الخاص في الجودة الذي يمكن مقارنته بفلسفات وممارسات الجودة الأخرى، للوصول إلى فهم واضح لخصائص ومميزات هذا المنهج، وصولاً إلى وضع نموذج إسلامي في جودة التربية.

نتائج

إن المنهج الإسلامي عقيدة وشريعة حض على جودة العمل والأداء التربوي، وأن هناك منظومة فكرية متكاملة الأطر والمبادئ لبناء وتحقيق الجودة التربوية بمعالمها الإسلامية في كل مجال بحسبه، وتوجد منظومة من القيم التي توجه السلوك التنظيمي التربوي، هذه القيم تجد لها صداً واضحاً في القيم التي يتبناها المسلم في حياته المجتمعية، مما لا يسبب تصدعاً أو انفصماً في شخصيته.

إن عمليات الجودة في الإسلام تمثل منظومة متكاملة من العمليات التي تعمل على كل المستويات التنظيمية وفي جميع الاتجاهات بمرونة وحرية في الأداء بما يضمن أداء العمل علي وقته وبما يضمن تحقيق الالتزام الذاتي والرقابة الذاتية دون غيبة للرقابة الرئاسية.

لم تكن منظومة تحقيق الجودة في الإسلام منظومة نظرية في عقول أهلها ولكنها كانت ممارسات فعلية جسدها الرسول صلي الله عليه وسلم في أفعاله وممارساته العملية وكذلك جسدتها العصبة المؤمنة في العصور الإسلامية الأولي مما نجم عنه حضارة بلغت من الرقي والجودة درجاتهما العالية، كذلك كان لهذه المنظومة نماذجها التطبيقية التي أثبتت فعاليتها في تحقيق الجودة ومنع الأخطاء.

يتضح أن المنهج الإسلامي يشمل تفاعل وتعاون المنظمة التي تتبنى المنهج التربوي الإسلامي، بيئتها المحيطة والمجتمع الذي تعمل فيه، مما يجعل التعاون في ظل المنهج الإسلامي أكثر شمولية من إدارة الجودة الشاملة، التي تركز اهتمامها على التعاون .

يتضح أن القوة التي يتطلبها الإسلام هي القوة التي يتمكن بها القائد أو العامل بصفة عامة من الإتيان بالعمل المطلوب بالجودة المحددة، كما أن التخطيط في الإسلام يتوفر له من الخصائص العلمية ما يجعله تخطيطاً محكماً محققاً لأهدافه، وكذلك التنظيم الإداري الإسلامي، وعملية الاتصال الناجحة.

يتضح أن العمل على تحقيق الجودة يستدعى بذل الوسع في تخير العامل للعمل الذي يناسبه، وهذا يعني ضرورة وضع الفروق الفردية في الاعتبار، فالناس ليسوا على طاقة واحدة، والشخص الواحد ليس على طاقة واحدة في كل الأعمال، والاستطاعة في الإسلام لا تنفك عن العمل، فالإنسان المسلم مطالب ببذل كل وسعه لإنجاز عمله وتحقيق جودته.

مناقشة

مفهوم الجودة في الإسلام

إن ما يميز ديننا الإسلامي الحنيف هي شموليته لجميع شؤون الناس، شموليته جاء هذا الدين الرباني كاملاً لهداية البشرية ومن أعلى مقامات الإيمان فيه مقام الإحسان لقوله تعالي: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) (المائدة:3). كما يمتاز الفكر الإداري الإسلامي عن غيره باستناده على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وبما يحملانه من ثوابت، وحسن ربط بين الدين والدنيا، وتأكيده على أهمية العمل وتجويده في حياة المسلم وفقاً لأعلى المعايير تلبية لتعاليم ديننا الحنيف بإتقان العمل وجودته وتحقيقا لأعلى درجات العلاقة مع الله وهي الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذه العلاقة لو وضعها كل واحد منا نصب عينه لما احتاج إلى من يراقبه أو يشرف عليه إلا من باب تطلعه الذاتي إلى أعلى درجات الإتقان والكمال.

ومن خلال التركيز على أبعاد مفهوم الجودة من منظور الإسلامي بتأصيلها من المصادر الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وإسهامات الفكر الإسلامي، نجد أن ديننا الحنيف قد أصل لفكر الجودة التربوية ولثقافة الإتقان أو الإحسان، فالمسلم في جميع أعماله الدينية والدنيوية مطالب ليس في مجرد الانصياع والقيام بالعمل فحسب، بل يتعداه إلى العمل المتقن وإحسان العمل. وقد وردت كلمة "إحسان في القرآن الكريم (11) مرة، وكلمة "أحسن" (53) مرة، وكلمة "حسن" (165) مرة، قال تعالي: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (الملك: 2)، (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: 125)، (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة: 195)، (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (القصص: 77).

كما أن نبي الأمة ومعلم البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم خير خلق الله أجمعين وقدوة العاملين يحث أصحابه على الإحسان والإتقان في العمل وجودته، فيقول عليه أفضل الصلاة والسلام: (إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن). (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (الألباني: 384). والجدير بالذكر، أن معنى مفهوم الجودة في الفكر الإسلامي يتميز عن

معناه ومفهومه في الفكر الإداري المعاصر، كونها أي الجودة تعني الإحسان والإتقان والإجادة في كل شيء يعمله المسلم، والذي يعني إجمالي السمات والخصائص لمنتج أو خدمة مقدمة ترضي الله سبحانه وتعالي أولاً ثم المستفيد منها من خلال استشعاره بالرقابة الذاتية للعامل والتي هي أساس الرقابة في الإسلام، لقوله تعالي "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" (ق: 18) فالإنسان المسلم كلما أحس بأنه محاسب ومراقب من خالقه عز وجل كلما ازداد إيمانه وخشي الله سبحانه وتعالي.

نجد حث واضح وصريح على التأكيد على تجويد وإتقان العمل المناط بالإنسان، ومحاسبته على ما يقوم به من أعمال، وبالتالي نستخلص نتيجة مؤداها أن الإحسان والإتقان والإجادة والجودة بالمفهوم المعاصر مبادئ رئيسة من مبادئ ديننا الإسلامي الحنيف. وعلى الرغم من أن مفهوم الجودة أو الإحسان أو الإتقان في ديننا الحنيف يتفق مع مفهوم الجودة في الغرب في تحقيق رضا وتوقعات المستفيد، إلا أنه يتخطاه في عنصر مراقبة الخالق عز وجل "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وهو ما يضفي على العمل المزيد من الإجادة والإحسان من خلال الرقابة الذاتية، لذا فالجودة أو الإحسان بالمفهوم الذي طرحناه وما نتطلع إليه أن يكون فعالاً ومؤثراً في كافة أعمالنا سينعكس بمشيئة الله إيجابياً على مدخلات وعمليات ومخرجات تلك الأعمال، مما يبرزها على أنها أعمال متقنة ومنظمة تعكس صورة الإسلام الصحيحة في زمن يتعرض فيه ديننا الحنيف إلى هجمات شرسة تتهمه بالعشوائية والتخبط.

مبادئ الجودة التربوية الإسلامية

لقد تباينت أراء الباحثين والكتاب في موضوع التربية في تحديد المبادئ التي تستند عليها، بحيث تورد بعض المبادئ كمتطلب، إلا أن هناك بعض المبادئ أتفق عليها، وعند النظر في هذه المبادئ نجد أن لها أصول إسلامية واضحة تبرز من خلال بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والتطبيقات الفعلية التي وردت في سيرة المصطفي صلي الله عليه وسلم وتتلخص المبادئ فيما يلي:

أولا : وضوح أهداف المؤسسة ورسالتها

وتعرف أهداف المؤسسة ورسالتها بأنها: الغرض الذي من أجله وجدت المؤسسة، وهي: هوية المؤسسة، ومبررات وجودها، والتوجهات والخدمات التي تقدمها، وإجرائياً هي تحديد الغايات والأنشطة التي تقدمها بشكل واضح وقابل للتغيير يتوائم مع أهدافها في الإسلام وبالتركيز على المستفيدين منها، فوضوح الأهداف يساعد على الرؤية السليمة لكافة الإجراءات والجهود المبذولة لقوله تعالي: (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (الملك: 22).

ثانيا : التركيز على المستفيد

فالجودة هي ترجمة لاحتياجات وتوقعات المستفيدين من العملية الإنتاجية أو الخدمية سواء كانوا مستفيدين داخليين، أو مستفيدين خارجيين إلى خصائص محددة تكون أساساً في تصميم الخدمات وطريقة أداء العمل في المؤسسة من أجل تلبية توقعات المستفيدين والسعي لتحقيقها وتحقيق رضاهم، حيث دعا الإسلام إلى حسن التعامل مع المستفيدين أثناء تقديم الخدمة، فالجودة بدايتها بالمستفيد ونهايتها بالمستفيد، بحيث يطور كل فرد في النظام علاقة طيبة، ففي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم قَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (البخاري، ح 1934). وقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم يتلمس حاجات أصحابه وأفراد أمته ثم يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم، وينفذ ما فيه مصلحة الأفراد والمجتمع، ففي غزوة بدر عندما وجد رسول الله صلي الله عليه وسلم بين الأسرى من يجيد الكتابة، جعل فدية من لا يستطيع فداء نفسه أن يعلم عشرة صبيان من المسلمين، وكان فداء الرجل أربعة الآلاف.

ثالثا : الالتزام بالتحسين المستمر التربوي

ويشمل التحسين جميع الوحدات التربوية، وهو تعهد استراتيجي ثابت من قبل الجميع بتأمين الجودة، فالإحسان في العمل مبدأ أساسي في الإسلام حيث يقوم كل عامل بتأدية عمله على أكمل وجه وبأفضل السبل المتاحة لقوله تعالي: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الكهف: 7) وفي الحديث عن كليب (إن الله تعالي: يحب من العامل إذا عمل أن يحسن) (البخاري: 384).

كما أن التحسين المستمر يجب أن يكون لجميع أعمال التربية ومرافقها، من منطلق قوله تعالي: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: 105) وقوله تعالي: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (المؤمنون: 51)، ولتحقيق التحسين المستمر للعمل عني الإسلام بتنمية كفاءة العاملين عن طريق تزويدهم بالمعلومات والمهارات اللازمة، لإنجاز أعمالهم بجودة عالية، فقد حث الإسلام على التزود من العلم بصفة مستمرة لقوله تعالي: (فَتعالي اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: 114). كما أكد الإسلام على ضرورة تدريب العاملين مع احتياجاتهم الوظيفية فقد كان المسجد النبوي أول معهد للتدريب، فعن علي رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى اليمن، قال: فقلت يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث لا أبصر القضاء قال فوضع يده على صدري، وقال: (اللهم ثبت لسانه، وأهد قلبه، يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضي بينهما حتى

تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء. قال: فما اختلف علي قضاء بعد أو ما أشكل علي قضاء بعد) (حنبل: ح 690، ص 97).

رابعا : النظام الوقائي التربوي

التركيز على الوقاية بدلاً من التفتيش؛ بأن تبادر الإدارات والمنظمات التربوية إلى معرفة المشكلات وتتوقعها قبل وقوعها وتضع الأنظمة الوقائية التي تمنع حصولها، ولقد اهتم الإسلام بالنظام الوقائي بوضع أساليب تمنع وقوع الأخطاء والمشكلات أثناء تأدية العمل حيث دعا إلى تنظيم نشاطات العاملين وفق ضوابط ومعايير محددة يلتزم بها العاملون أثناء تأدية العمل، والعمل على تنمية الرقابة الذاتية لدى الأفراد، من منطلق قوله تعالي: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: 1). وقوله تعالي: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا) (الإسراء: 13) مما يدل على رقابة الله على عباده، وغرس الرقابة الذاتية كأسلوب لضبط السلوك لكي يؤدي العامل عمله بإخلاص وإتقان على أساس من تقوى الله سبحانه وتعالي وخشيته.

وقد أقر الإسلام الرقابة الخارجية نظراً لاختلاف العاملين في إعدادهم وخبراتهم وقدراتهم الخاصة، فحرص على وضع معايير، ونظم رقابية، ومحاسبية، بحيث يقلل من حدوث الأخطاء، ويحد من حدوثها؛ وذلك من منطلق الحديث عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (البخاري: ح 844).

خامسا : المشاركة وتفويض الصلاحية

ويقصد بالمشاركة وتفويض الصلاحية للعاملين تفعيل دورهم بطريقة تشعرهم بالأهمية وتحقيق الاستفادة الفعلية من إمكاناتهم والمشاركة المقصودة هنا هي المشاركة الجوهرية وليست الشكلية في التربية، إذ يفترض أن تحقق المشاركة أمرين. الأول: تزيد من إمكانية تصميم خطة أفضل، والثاني: تحسين من كفاءة صنع القرارات من خلال مشاركة العقول المفكرة والقريبة من مشاكل العمل التربوي.

أما تفويض الصلاحية فهي لا تعني فقط المشاركة بل يجب أن تكون مشاركة الأفراد بطريقة تمنحهم صوتاً حقيقياً عن طريق هياكل العمل والسماح للعاملين بصنع القرارات التي تهتم بتحسين العمل داخل أقسامهم الخاصة التربوية، فبدون المشاركة وتمكين العاملين، وتوزيع الصلاحيات، والمهام، وإعطاء الفرص لرفع الروح المعنوية لفريق العمل والإخلاص الثابت، والملموس من الجميع لجعل مبادئ التربية وممارساتها جزءاً لا ينفصم من ثقافة المؤسسة فإن كافة الجهود المبذولة محكوم عليها بالفشل. فقد ورد في السيرة أن الرسول صلي الله عليه وسلم أوجد لكل طاقة ما يناسبها من عمل تربوي، ووزع المسؤوليات ففي عهده صلي الله عليه وسلم تولى علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان كتابة الوحي، كما كان يقوم بذلك أثناء غيابهما أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يقومان بكتابة أموال الصدقات، وكان حذيفة بن اليمان يعد تقديرات الدخل من النخيل، وكان المغيرة بن شعبة والحسن بن نمر يكتبان الميزانيات والمعاملات بين الناس وزيد بن ثابت كان يكتب مراسلات الحكام والولاة بلغات مختلفة (ابن القيم: 368). كما دعا الإسلام إلى إشراك العاملين في اتخاذ القرارات من أجل الاستفادة من قدراتهم الإبداعية من خلال تأكيده على مبدأ الشورى لقوله تعالي: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: 159). وهنا تأكيد على قيمة التوكل على الله لا على المشورة؛ ففيها توفيق الله وإرشاده إلى حقيقة المشورة وصدقها (القرطبي: ج4، ص162)، فالمشورة سبب والسبب لا بد أن يقترن بالتوكل والاعتماد على الله والتوكل على الله لا بد أن يعقل بالأسباب ليسير الإنسان على هدى الله في حياته وأعماله. عملاً بما جاء في الحديث الشريف عن أنس بن مالك يقول : "قال رجل : يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل قال: (اعقلها وتوكل). (الترمذي: ج4، ح576، 2517).

سادسا : التحفيز التربوي

ولشد همم العاملين لتأدية العمل بجودة عالية، وضع الإسلام نظاماً للتحفيز يقوم على مكافأة العاملين المتميزين في تأدية أعمالهم، فالتشجيع والتحفيز للعمل الصالح مبدأ رباني يتضح في قوله تعالي: (وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ. يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (النجم: 39-41). فوجود حافز للعمل شيء أساسي في تحسين العمل بحيث يزيد المحسن إحساناً ويشجع المقصر على التحسين والتطوير من منطلق قوله تعالي: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا) (الكهف: 30). فتقديم التشجيع والتحفيز المادي والمعنوي للأفراد ضروري، وأن تكون هذه الحوافز مستمرة، وواضحة الأهداف، وأن يحسن اختيار الزمان والوقت لإعطاء الحافز، وأن يكون الحافز مناسباً

لشخصية وحاجته، لكي يقع الحافز موقعاً جيداً للمقدم له، لذلك ربط الإسلام الحوافز بمعدلات أداء العمل قال تعالي: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (الأحقاف: 19).

ولأهمية موضوع الحوافز وتأثيره على عجلة التربية فقد اهتم الباحثون برصد مجموعة من العوامل التي تؤثر على تحفيز الناس للعمل التربوي منها عوامل ذاتية مثل: الحصول على علاوة في المرتب، أو وجود علاقات طيبه مع المشرفين، أو وجود أمان وظيفي، وعوامل تحفيزية مثل: أن يرى الشخص نتيجة عمله، تلقي الثناء والمديح، التكليف بمسؤوليات أكثر، وقد حصر (الطويرقي) أساليب التحفيز الإداري الفعال التي استخدمها الرسول صلي الله عليه وسلم وصحابته الكرام في الحوافز المادية: مثل توزيعه صلي الله عليه وسلم الغنائم بعد الغزوات مباشرة بعد أخذ الخمس، والحوافز المعنوية: مثل: تشجيعه صلي الله عليه وسلم أصحابه بالكلمات التشجيعية مثل: "ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب"، وقوله :"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة" وكان أكثر ما يستخدم المصطفي صلي الله عليه وسلم الحوافز المعنوية حين يرى أن الأمر يحتاج إلى تشجيع وأن هناك من يستحق ذلك حقيقة لا مجاملة فيها (الطويرقي: 2002).

سابعا : مداومة الاتصال بالمستفيدين

وهي الطريقة التي يستخدمها شخص للتأثير على شخص آخر لتغيير أو لتعديل فكره أو سلوكه، وهي اتصال بين شخصين أو مجموعتين يبين لكل منهما كيف يؤثر على الآخر، والتغذية المرتدة تمكن قائد الفريق أو الإدارة من أن يصبح على دراية بالمشاكل الداخلية قبل أن تستفحل خطورتها، وشكاوى فريق العمل، أو صوت العمليات، وشكاوى المستفيدين من الخارج، أو صوت البيئة الخارجية المستفيدة (الشيخ: 2000). فمن الضروري تقييم سير العمل داخل مؤسسات المجتمع، والحصول على التغذية التربوية من جانب أفراد المجتمع لتحديد مستوى جودة المنتجات والخدمات الواجب استيفاؤها، واستخدام الموظفين المدربين لتطوير هذه المنتجات والخدمات بما يرضي المستهلك إلى أقصى درجة ممكنة، ويحقق أهدافه، وقد عرف عن النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه متابعتهم المستمرة للعمل وحرصهم على إتقانه بدليل ما ورد في حديث المسيء صلاته عن رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رضي الله عنه قَالَ: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم جَالِسٌ وَنَحْنُ حَوْلَهُ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَأَتَى الْقِبْلَةَ فَصَلَّى فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَعَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم: (وَعَلَيْكَ اذْهَبْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) فَذَهَبَ فَصَلَّى فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم يَرْمُقُ صَلَاتَهُ وَلَا يَدْرِي مَا يَعِيبُ مِنْهَا فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم وَعَلَى الْقَوْمِ

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم (وَعَلَيْكَ اذْهَبْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِبْتَ مِنْ صَلَاتِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم إِنَّهَا لَمْ تَتِمَّ صَلَاةُ أَحَدِكُمْ حَتَّى يُسْبِغَ الْوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.) (النسائي: ح1124).

وقد حرص الإسلام على مداومة الاتصال بالمستفيدين لمعرفة ردود أفعالهم عن مستوى جودة الخدمات التي تقدم لهم، ومعرفة احتياجاتهم ورغباتهم والعمل على تحقيقها فقد ورد في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم: (لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ) (النسائي: ح2320). وقد حذر الرسول صلي الله عليه وسلم من عدم المتابعة ومعرفة حاجات ورغبات المستفيدين في الحديث عَنْ أَبِي الشَّمَّاخِ الْأَزْدِيِّ عَنِ ابْنِ عَمٍّ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلي الله عليه وسلم أَتَى مُعَاوِيَةَ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم يَقُولُ: (مَنْ وَلِيَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ النَّاسِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ الْمِسْكِينِ وَالْمَظْلُومِ أَوْ ذِي الْحَاجَةِ أَغْلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتعالي دُونَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ عِنْدَ حَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا) (النسائي: ح1098).

خصائص جودة التربية الإسلامية.

أولا : الرقابة الذاتية

ويقصد بها قيام الموظف أو العامل بمحاسبة نفسه بنفسه، مما يجعل أداءه ثابتاً سواء استخدمت المؤسسات التربوية أدوات رقابية أم لا، وهي نابعة من عدة أمور منها إحساسه بالمسؤولية تجاه مؤسساته ومجتمعه، وأن عمله سيؤثر على أداء وسمعة المنشأة من ناحية، وعلى سلامة، مجتمعه ورقيه من جهة أخرى، فضلاً عن أن المسلم يستشعر رقابة الله الدائمة عليه، وأن الله سيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، فيدفعه ذلك للإخلاص والتفاني في عمله دونما رقابة من الناس، ومحاسبة نفسه قبل أن يحاسبه غيره، وقد أقسم الله بالنفس التي تلوم صاحبها على فعل السوء وعلى عدم فعل الخير فقال تعالي: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: 2) على أنه تجدر الملاحظة أن الرقابة الذاتية نسبية التحقق، وهي ترتبط بقيم الفرد وحالاته النفسية والإيمانية، فهي تزيد كلما كانت حالته النفسية والإيمانية حسنة، والعكس صحيح، مما يبرر استمرار وجود الأدوات الرقابية الأخرى، وميزة الرقابة الذاتية هنا أنها تقلل إلى حد بعيد من الحاجة إلى أدوات ونظم الرقابة الأخرى، مما يقلل الجهد والتكلفة التي تتطلبها عادة تلك الأدوات والنظم.

ثانيا : الاحتساب

في بعض الأحيان يبذل المستخدم جهوداً فوق ما تتطلبه واجباته الاعتيادية، وإذا لم تكافئ الإدارة تلك الجهود فإنه يصاب بالإحباط والسخط، وكثيراً ما يحدث ذلك في ظل نظم إدارة الجودة المعاصرة، إلا أن المستخدمين في ظل الإدارة الإسلامية يرون أن لما يقدمون من جهود أجرًا يتجاوز المكافآت المادية والمعنوية التي تقدمها المؤسسات، وذلك فيما ينتظرونه من جزاء أخر ولقاء إخلاصهم أعمالهم لله، يتمثل في زيادة رصيدهم من الحسنات، وإرضاء ربهم ثم أنفسهم ثم إدارتهم بما يقدمون وما يبذلون، بل إن الإسلام ليحض أتباعه ليس إلى مجرد فعل الخير فحسب، بل إنه يندبهم أن لا يظهروا ذلك لأقرانهم أو لإدارته، خوفاً من أن يتسرب إليهم الرياء فيحبط ذلك العمل ويحرم صاحبه الأجر.

ثالثا : التحسين المستمر

لقد ورد في الحديث النبي صلي الله عليه وسلم بما في معناه وإن كان في سنده ضعف كما أشار له العلماء، ولكن لا يمنع من الاستدلال به هنا وهو قوله: (من استوى يومه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون، ومن لم يكن على الزيادة فهو في النقصان، ومن في النقصان فالموت خير له) يبين أن أهمية التحسين للفرد والمنشأة، والحرص على الاستزادة من كافة الأمور التي ترتقي بأداء الفرد والمنشأة والمجتمع ككل، وهذا يجعل النموذج الإسلامي في إدارة تربية الجودة متقدماً على غيره من نماذج الجودة التي تركِز على أن يكون أداء اليوم مطابقاً لما تم توثيقه بالأمس، بل إن النموذج المقترح يعتبر عدم تحسن الأداء من يوم لآخر غبناً وخسارة، وبالنسبة لأساليب التحسين، فإن النظام المقترح يقر استخدام الوسائل الإحصائية والرياضية وأية وسيلة أخرى من شأنها تحسين الأداء.

رابعا : المسؤولية الجماعية

يعتبر النموذج المقترح مسؤولية الجميع، وأن تقصير أي فرد في عمله سيؤدي إلى قصور في عمل ككل، وذلك انطلاقاً من الحديث الشريف: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يترآوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا) (البخاري: ح2493)، إلا أن ذلك لا ينفي الحاجة إلى أفراد أو إدارات تختص بالإشراف على الجودة التربوية ككل، ولا يعني ذلك بحال إعفاء الإدارة من مسؤوليتها العامة عن الجودة التربوية في المنشأة .

خامسا : مشروعية الأهداف والوسائل

وفقاً للنموذج الإسلامي لإدارة الجودة، فلابد أن تكون الأهداف التي تسعى المنظمة لتحقيقها، والوسائل التي تتخذها لتحقيق تلك الأهداف متفقة مع مقاصد الشريعة الإسلامية، فلا يسمح نظام التربوي المقترح بأن تقوم بممارسات تنافسية تقصد به الإضرار المادي أو المعنوي بالمنافس، ولا يقبل أن تقوم بأنشطة قد تضر بالبيئة، ولا يقبل أن تحوي منتجاته مكونات محرمة حتى لو أن هذه المكونات ترضي العملاء، أو كان تجد تبريراً في ظل القانون الوضعي، وباختصار فإنه بالرغم من أن نموذج الجودة المقترح يركز على العملاء، إلا أنه يقدِّم رضا الله على رضا العملاء، ويعتبر أن المصلحة هي في إتباع رضا منهج الله .

سادسا : الشمولية

في ظل النموذج الإسلامي فإن الجودة لا تتحقق بأفضل صورها إلا إذا كانت تشمل كل شيء في التربية ابتداء بغاياته أو أهدافها، ومروراً بمدخلاتها البشرية والمادية والمعنوية، وعملياتها، وبيئة العمل فيها، وانتهاء بمخرجاتها، حيث ترتبط كل تلك العناصر فيما بينها وتؤثّر على بعضها، وبالتالي فإن تدني جودة بعضها سيؤدي إلى تدني الجودة الكلية، ولن تكون جودة معظمها عاصماً للجودة الكلية من التأثر سلباً بتدني جودة البقية ولو بعد حين، بل إن نظام الجودة يعتبر وفقاً للتصور الإسلامي نظاماً جزئياً من نظام جودة الحياة في المجتمع ككل.

سابعا : التناصح

يقدم النموذج المقترح علاقة فريدة بين الإدارة والعاملين، حيث يجعل الشورى واجب لا بد أن تمارسه الإدارة التربوية، ويجعل تقديم النصح واقتراحا لتحسينات ومعالجة السلبيات، واجباً على العاملين تجاه إدارتهم، انطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى.

ثامنا : التوثيق

يمثل التوثيق التربوي عقداً مكتوباً تتحدد من خلاله علاقات الإدارات المختلفة فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين كل من العاملين والعملاء والموردين، كما يبين التوثيق إجراءات العمل ويتضمن معايير الأداء لمختلف عمليات التربية، ولقد حض الإسلام على التوثيق في جميع المعاملات، وخاصة المعاملات التجارية كالدَّين والبيوع، بل إن أطول آية في القرآن هي آية الدَّين:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) (البقرة: 282) التي تحدد بالتفصيل إجراءات الدَّين والبيع وضرورة أن يتم توثيقهما كتابة بشكل دقيق وفي حضرة الشهود العدول، ولقد استخدم المسلمون التوثيق في جميع

أعمالهم، في وصف إجراءات العمل والعمليات الإنتاجية، حيث تحفل كتب المعاملات الشرعية وكتب الحسبة وكتب الأدب مثل صبح الأعشى، بما لا يحصى من الأمثلة على انتشار التوثيق في جميع الشؤون الإدارية والتجارية والاجتماعية في الحضارة الإسلامية على مر عصورها، بل إن الله يعلمنا أهمية التوثيق حين يستخدمه بذاته جل في علاه، حيث كتب جميع الأقدار في اللوح المحفوظ رغم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، ويسجِّل جميع ما يفعله العباد حتى لو كان مثقال ذرة، ويخرج لهم يوم القيامة تلك الأفعال في كتب يقرؤونها.

تاسعا : اتخاذ القرارات اعتماداً على الحقائق

لقد نص القرآن على وجوب اتخاذ القرارات بناءً على علم ثابت لا على غيب وجهالة حيث يقول الله تعالي: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الاسراء: 36) ، وقد كان الرسول لا يبرم أمرا ذي بال إلا بعد أن تجتمع لديه من الحقائق ما يجعله يتخذ قراره بأعلى درجة ممكنة من التأكد، إلا أنه يستحيل على بشر أن يتغلب على عدم التأكد (الغيب) تماماً، وما يترتب عليه من أخطاء أو خسائر، وهذا القرآن يحدث بذلك على لسان النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) (الأعراف: 188) ، ولا يشترط النموذج الإسلامي استخدام أدوات أو أساليب علمية أو تقنية محددة في اتخاذ القرارات، بل يفتح الباب على مصراعيه لكل جديد مفيد، دون أن يتحرج من القديم لمجرد أنه قديم مادام وافيا بالمطلوب.

عاشرا : التأكيد على تحقيق النتائج التربوية

وذلك على المدى القريب والبعيد، مع التأكيد على أن تكون النتائج قصيرة المدى في خدمة النتائج بعيدة المدى، لأن الأخيرة هي المعيار لتحقيق المنظمة غاياتها وأهدافها، وفي ذلك يقول تعالي: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص: 77)، فالدنيا في التصور الإسلامي هي مرحلة قصيرة المدى، ويجب أن تكون جميع الموارد مسخَّرة لتحقيق الغاية الكبرى التي يسعى الإنسان من أجلها، ألا وهي السعادة الأبدية، وهكذا طبق المسلمون هذا المفهوم في الدعوة حينما رفض الرسول عليه الصلاة والسلام عروض قريش في أن يجعلوه أغناهم أو يزوجوه خير نسائهم أو ينصبوه ملكاً عليهم، لأنه كان يضع نصب عينيه أهدافاً بعيدة المدى، وطبقه المسلمون في التجارة، فلم يقبلوا بربح سهل سريع مؤقت، لأنهم كانوا يسعون لإرضاء زبائنهم وترغيبهم في الإسلام فضلاً عن تحقيق الربح المادي المستديم في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

أحد عشر: التركيز على رضاء العملاء

لما كان الإسلام ديناً يهدف إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ويحترم حريته وكرامته وحقوقه، حتى إن صلاة الإمام لا ترتفع إلى السماء إذا أمَّ بقوم وهم له كارهون، فإنه تبعاً لذلك يدعو إلى منح العميل أقصى درجة ممكنة من الإشباع والرضا، وهذا من باب الأمانة والعدل وفعل الخير وإدخال السرور على قلب ذلك العميل، وما دامت حاجات العميل ورغباته مشروعة، فمن حق التربوي أن يلبي تلك الحاجات ويشبع تلك الرغبات بأقصى ما يستطيع، ولقد رغَّب الإسلام في قضاء حاجات الناس وإدخال السرور إلى قلوبهم، سواء كانوا عملاء أم غير ذلك، فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسرَّه بذلك أسَّره الله عز وجل يوم القيامة) (الشامي: 1985)، فإذا كان ذلك كله في حالة إدخال السرور على أي شخص وبدون مقابل، فإن من يتعامل مع التربويين ويدفع لهم ماله أولى بأن تقضى حوائجه على الوجه الأكمل وأن يدخل الرضا والسرور إلى قلبه.

مكانة الجودة التربوية في الإسلام

بالتأمل في معاني ومصلحات الجودة الغربية، يتضح بما لا يدع مجال للشك "أن الجودة في الإسلام، والإسلام كله جودة"، وهذه بعض من البراهين التي سبقنا لها فلاسفة الإسلام القدامى، وعلماء وكتاب المسلمين المعاصرين، فالإسلام دين شامل وكامل وواقعي، فكمال الإسلام وشموليته مؤكدة من خلال قوله سبحانه وتعالي في محكم التنزيل الكتاب المحفوظ: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا) (المائدة: 3).

وواقعية الإسلام تقتضي منا أتباعه عموماً، وعلينا وعلى أهل العلم والاختصاص منهم على وجه الخصوص أن يعيشوا عصرهم ويعرفوا واقعهم، وأن يحسنوا الانتفاع من كل ما هو جديد ومفيد، عملاً بقول رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام (الحكمة ضالة المؤمن أن وجدها فهو أحق الناس بها). إن مفهوم الجودة في الفكر الإسلامي فإن الجودة تعني الإتقان في كل الأعمال سواء كانت تعبدية أو مرتبطة بحياة المؤمن و مجتمعه. ولقد قال سبحانه وتعالي في سورة الملك: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ). إن البحث عن الأدلة والشواهد من القرآن والسنة التي تدل على ذلك المبدأ أو ذاك الإجراء في فلسفة الجودة يعتبر بحثاً طويلاً ... وقد كتبت حوله كتب قيمة من أهل الاختصاص في علوم الدين ... وخلاصتها تؤكد أن "الجودة هي الإسلام- والإسلام هو الجودة التي ليس كمثلها جودة" ... إن الدارس لمفهوم الجودة في الإسلام يلاحظ أن هناك "تمازجاً وتزاوجاً بين البعد الأخلاقي والإيماني مع البعد المادي للأعمال"، هذا أهم ما يميز الفكر الإسلامي على الفكر الغربي المادي المعاصر.

أركان الجودة التربوية في الإسلام.

هذه العمليات المقصودة والهادفة تتكامل فيما بينها من ناحية، وبينها وبين المجتمع وظروف البيئة الخارجية من ناحية أخرى، مكونة منظومة متكاملة مفتوحة على المجتمع والبيئة، تأخذ منها الموارد والمدخلات وتقدم لها النواتج والمخرجات (أحمد: 2003).

فالمفاهيم الإسلامية تأتى صياغتها بصورة شاملة، تأخذ في اعتبارها جوهر الرؤية الإسلامية الذى لا يفصل بين اعتقاد وقول وعمل، حيث إن المفاهيم الإسلامية ليست مدركات عقلية تدور في إطار البحث اللغوي أو اللفظي البحت، ولكنها تشكل صياغة جوهر الوعى الحضاري ذاته، ذلك لأن الوعي لا يعد أصيلا إلا إذا نفذ إلى الأعماق وصاغ الأحاسيس وشكل النيات وصاغ هوى المسلم، وصاغ بالتالي الحياة جميعا. ومن الملاحظ أن هناك وجهات نظر حول عمليات التربية من حيث عددها ومضمونها، إلا أن جودة التربية ترتكز بصورة أكثر على علميات–القيادة، التخطيط، التنظيم الاتصال، والرقابة.

وسوف نتناولها باختصار من واقع إطارها العقدي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن واقع الممارسة العملية في دولة الرسول صلي الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ومن واقع كتابات السياسة الشرعية والمؤلفات التربوية.

أولاً: القيادة

القيادة بالإضافة إلى كونها فطرية في الإنسان، فهي من أعظم واجبات الدين، التي لا يتم صلاح الدين والدنيا إلا بها، ذلك لأنه لما كان اجتماع البشر ضرورة، وكان من المحال حياتهم ووجودهم منفردين، وكان من ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض، فما لم يكن الحاكم الوازع، أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية (ابن خلدون: 135) وهذا هو كأنه وجوب القيادة. ويقول: "ابن تيمية" يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولابد لهم عند الاجتماع من رأس...ذلك لأن الله تعالي أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمَع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة. وعليه مثلت القيادة عنصر عظيم الأهمية في بنية النظام الإسلامي على اتساعه، وفي مستوياته التنظيمية المختلفة بدءاً من رأس المجتمع الإسلامي–خليفة المسلمين – ومرورا بأمراء الأقاليم والأجناد والسرايا، وانتهاءً بالاجتماع العارض القليل في سفر أو عمل أو ما شابه ذلك، حيث قال رسول الله صلي الله عليه وسلم تنبيها على ضرورة القيادة:(إذا خرج ثلاثة في سفر

فليؤمروا أحدهم) وقال أيضا:(لا يحلُ لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمّروا أحدهم) (ابن تيمية، 1418:391) فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم، كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، وإذا شرع هذا لثلاث يكونوا في فلاة من الأرض أو يسافرون فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم أولى وأحرى.

وعند وفاة النبي رسول الله صلي الله عليه وسلم كان أول ما شغل أصحابه رضوان الله عليهم أن يختاروا إماماً لهم، حتى إنهم قدموا ذلك على دفنه صلي الله عليه وسلم، فبادروا إلى بيعة أبى بكر، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر بعد ذلك (القرضاوي، 1983:17)، وهكذا يتضح أن الإسلام أولى القيادة اهتمام كبير لأهميتها، حيث اعتبرها من الضرورات الشرعية التي لا يقوم الدين إلا بها، ولا تصلح الحياة ويأمن الناس إلا بوجودها وجعلها الإسلام واجبة في كل جمع ثلاثة فأكثر حيث تسعى القيادة إلى إقامة الشرع وتحقيق العدل ونشر الأمن وتنسيق الجهود لإصلاح وعمارة الدنيا وتسعى لإثارة الهمم لتحقيق أهداف الجماعة وإشباع حاجاتهم.

ثانياً: التخطيط للجودة

يمثل التخطيط المرحلة الأولى من مراحل العملية الإدارية الساعية للجودة، والتي يتوقف على نجاحها نجاح العمل الإداري برمته في حاضره أو مستقبله، ذلك لأن التخطيط يضع خطوطاً وحدوداً واضحة لمسارات العمل، على ضوء الأهداف الموضوعة والموارد المتوافرة والاحتمالات الممكنة في المدى القصير والطويل. والتخطيط هو نظرة متأنية لما سوف يكون عليه المستقبل، ومن ثم إعداد العدة لمواجهته وتوظيفه لصالح المجتمع، والتخطيط يعنى "البحث عن أفضل البدائل الممكنة لتحقيق هدف معين في مدة معينة وفي حدود الإمكانيات المتاحة تحت الظروف والملابسات القائمة" (خميس، 1990:42)، ويعنى أيضا "النظر إلى المستقبل ومحاولة استشفافه وتهيئة الموارد والإمكانيات الكفيلة بتحقيق الأهداف التي تم اختيارها من بين بدائل يجرى المفاضلة من بينها" (فايد، 1982:103).

والتخطيط في الإسلام له شأن عظيم، ذلك لأن الإسلام دين العلم والحركة الهادفة المحسوبة والتي ترفض الارتجال والعشوائية أو ترك الأمور تجرى في أعنتها بغير حدود تحدها، وهو كذلك دين المستقبل، فالنظرة المستقبلية شيء أساسي في أصل الدين، كما أنه دين الأخذ بالأسباب والتدبر والتدبير المتقن. واحتفاءً بالتخطيط ودوره في حماية البلاد والعباد، حكى القرآن الكريم أحد أبرز الخطط الشاملة نجاحاً في تاريخ البشرية، تخطيط يوسف عليه السلام لإخراج مصر من مخاطر السنين السبع العجاف التي مرت بها أيام العزيز، حيث حكى القرآن عن يوسف قوله: (قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي

سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُون. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (يوسف: 47-49)، حيث تكاملت في هذه الخطة مقومات التدبير والتخطيط الناجح.

وأبرزت كتب السيرة براعة الرسول صلي الله عليه وسلم في التخطيط لهجرته النبوية المباركة للمدينة وكيف جمعت الخطة عناصر الإعداد والتجهيز، وجمع المعلومات، والتحوط للظروف الطارئة والنظرة المستقبلية، كذلك تخطيط الحياة بالمدينة بعد الهجرة وخطط النبي صلي الله عليه وسلم الحربية في مواجهة أعدائه. وعلى نهج النبي صلي الله عليه وسلم في التخطيط سار الخلفاء الراشدون، فكانوا يدبرون لكل شيء أمره ويضعون لكل عمل خطته التي تنجز الأهداف على أوقاتها وفي ضوء الإمكانيات المتوفرة والظروف المتغيرة.

والتخطيط في الإسلام له عناصره وضوابطه التي تميزه عن غيره من نظم التخطيط الوضعية، ومن أبرزها ما يلى:

ارتباط التخطيط بالمنهج العقدي الإسلامي، والدقة والوضوح في تحديد الأهداف، والتخطيط في الإسلام عملية جماعية قائمة على الشورى، وإعداد العدة اللازمة لنجاح الخطة، وإعداد قاعدة متكاملة من البيانات والمعلومات حول الشيء المخطط له، واعتماد نظام من الأولويات عند بناء الخطة، والتحوط للظروف غير المتوقعة – مرونة الخطة، والتخطيط للمدى الطويل– البعد المستقبل، وتوافر الصفات العلمية والخُلقية في القائمين بالتخطيط.

وبهذا كله يتضح أن التخطيط في الإسلام يتوفر له من الخصائص العلمية ما يجعله تخطيطاً محكماً محققاً لأهدافه، كما يتوفر له من الخصائص العقدية ما يفوق نظم التخطيط الوضعية، مما يجعله تخطيطاً أكثر شمولية وأبعد نظراً للمستقبل الذي يمتد من الدنيا إلى الآخرة، والرؤية الإسلامية أقامت خططها على نظرة أبعد ما تكون للمستقبل الذي يمتد من المهد إلى اللحد، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن ثم تجد المسلم لا يخطو خطوة إلا ونظره مشدود إلى الآخرة، فيأتي عمله متوازناً بين واقعه وحاجاته للمستقبل.

ثالثاً :التنظيم

التنظيم يسعى إلى تنسيق الجهود والمواهب والقدرات البشرية وتوجيهها نحو تحقيق هدف معين بأقصى كفاية من جهد ووقت وتكلفة، إنه نظام تتلاقى وتتعاون فيه الجهود لتحقيق أهداف النظام.

والتنظيم عملية إدارية هامة لأي مؤسسة من المؤسسات وتتجلى هذه الأهمية في مساعدة الإدارة على تحقيق أهداف في مقدمتها. انتظام العمل وانسيابيته بسهولة ويسر بتحديد نشاطاته ومراحله والقائمين به ومواقعهم، وتحديد اختصاصات ومسئوليات كل إدارة وكل فرد، وطبيعة التعاون بينهم على نحو لا يقود إلى تنازع في الاختصاصات أو تضارب في السلطات. الاستغلال الكفء للإمكانات المتاحة والحصول على أقصى طاقة إنتاجية منها، وتقليل عناصر التنافر والاحتكاك، وتحقيق مزيد من التعاون بين الأفراد والجماعات .

والتنظيم سمة متأصلة في المنهج الإسلامي في كل أحواله وأعماله، وخاصية يجب على المسلم الوقوف عليها في كل شأنه، والمسلم يهتدي إلى أهمية التنظيم ومكانته من ذلك المشهد اليومي الذي يعاينه كل إشراقة شمس وغروبها، حيث تتجلى إبداعات التنظيم الإلهي في الكون الفسيح، تنظيماً لا تخرج عن إطاره ذرة ولا مجرة تنظيماً يضمن لهذا الكون البقاء والاستمرار دون خلل أو توقف أو تأخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالي: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ*لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: 37-40). كما تتجلى أهمية التنظيم عندما يبدو توافره شرطاً أساسياً لقبول عبادة المسلم كالترتيب والموالاة في الوضوء وكذلك أركان الصلاة وشروطها وأدائها في أوقاتها وهيئة صلاة الجماعة، قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (لتُسوُّنَّ صُفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم) (أبو داود) وغير ذلك من العبادات. إن الإسلام دين يهتم بالتنظيم ويحث على النظام، سواءً في السلم أو الحرب، والتنظيم في الإسلام ليس هدفاً في حد ذاته بل هو وسيلة لتحقيق أهداف معينة تسير في فلك المشروعية الإسلامية التي تكفل تحقيق مصالح البلاد والعباد ودفع المضار عنهم، وهذه الأهداف تحتوى في طياتها أهداف أعضاء التنظيم أنفسهم، مما يجعلهم يتمثلون تلك الأهداف في وجداناتهم كأهداف شخصية لهم ويلتفون حولها ويسعون بكل السبل لتحقيقها، وعندما يسعى التنظيم لتحقيق هدف شرعي بصبغة عقدية فإن الولاء للتنظيم سوف يرتفع لدى العاملين لأنه عندها يصبح ولاءً للشريعة الإسلامية (عبد الباسط).

وبالإضافة لذلك فإن التنظيم الإداري الإسلامي له ضوابطه، والتي إن اشتركت فيها مع نظم الإدارة الوضعية إلا أنها ذات صبغة وتوجه إسلامي تجعله أكثر مرونة وتجاوباً وتوافقاً مع ظروف المجتمع الإسلامي، ومن أبرز ضوابط التنظيم في الإسلام:

1- تقسيم العمل وتوزيع الأدوار.

2- التدرج الوظيفي والمستويات الإدارية.
3- التوازن بين المركزية واللامركزية.
4- وحدة التنظيم.

يتضح أن التنظيم الإداري الإسلامي يسعى إلى تحقيق أهداف تتصف بالمشروعية، ويقوم على قاعدة من المبادئ العامة المقتبسة من مبادئ الشريعة الإسلامية، مما يعطى هذا التنظيم مرونة وشمولية أكثر من غيره من التنظيمات، ويصبغه بالروح الإسلامية كما أن التنظيم الإسلامي اهتم بالتخصص وتوزيع الأدوار والمسئوليات واهتم بالتدرج الوظيفي المرن الذى يساهم في فعالية التنظيم وتدعيم الاتصالات الأفقية والجانبية. والتنظيم الإسلامي لكي يكتب له النجاح والعمل بفعالية يتطلب بيئة إسلامية (عبد الباسط).

رابعاً :الاتصال

الاتصال: عملية تفاعلية تهتم بنقل فكرة أو مجموعة أفكار إلى شخص أو جماعة بوسائل معينة لتحقيق أهداف المؤسسة، إنها وسيلة تربط أعضاء التنظيم بعضهم ببعض من أجل تحقيق هدف أساسي معين، إنها تبادل الآراء والمعلومات من أجل إحداث تفاهم وثقة متبادلة وإلى إحداث علاقات إنسانية. وتعرف بأنها: تلك العملية الدينامية التي يؤثر فيها شخص سواء عن قصد منه أو غير قصد على مدركات شخص آخر أو آخرين من خلال مواد ووسائل مستخدمة بشكل وطرق رمزية (أحمد).

والاتصال في الإسلام عملية على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه يتأكد من خلالها فعالية المسلم في الكون، تحقيقاً لمغزى وجوده على الأرض من نشر الدعوة وبناء الأمة المؤمنة القوية الموصولة بربها المحققة لأمر الله في الأنفس والآفاق، المتحدة في وشيجة واحدة –العقيدة والساعية إلى الاتصال بالآخرين تدعوهم إلى الإيمان وإلى التوحد حول رب واحد، قال الله تعالي: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13). ولقد جعل الله "الوصل" من صفات أصحاب العقول الواعية والألباب المدركة، قال الله تعالي: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ*الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ*وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (الرعد: 19-21). ولقد جعل الله الخسران وسوء العاقبة للذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، قال تعالي: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (الرعد: 25)، وذلك في مقابل الآية السابقة فجعل من صفات هؤلاء القطع

بالضد من ذلك الوصل، والمراد قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الأرحام ووصل سائر من له حق (الرازي، 2000:17). والوصل في الآيات السابقة عند القرطبي: (هو عام في كل ما أمر الله تعالي به أن يوصل، هذا قول الجمهور والرحم جزء من هذا) (القرطبي).

ولقد جعل الله تعالي القول موصولاً الى الأمم والأقوام إرادة أن يتذكروا ويتدبروا، قال تعالي (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (القصص: 51)، وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان، وهذا القول يحتمل أن يكون المراد منه إنا أنزلنا القرآن منجماً مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون أقرب إلى التذكر...ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الأنبياء بعضهم ببعض وأخبار الكفار في كيفية هلاكهم تكثيراً لمواضع الاتعاظ والانزجار. وهنا تستمر عملية الاتصال حتى تظل القضية موضع الاتصال نشطة في نفوس المستقبلين بغية تحقيق الهدف الذى من أجله يتم الاتصال (الرازي).

ولقد كان المنهج النبوي الشريف في نشر الدين الجديد والدعوة إلى الله تقوم على الاتصال بالناس على كافة المستويات ومن جميع العرقيات والألسن: العرب والعجم، إنه الاتصال الشامل واسع المدى الذى يتعدى حدود المكان، لأن رسالة الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة، قال الله تعالي: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) (سبأ: 28). وفي النموذج الإسلامي للاتصال، تتنوع طرق وأساليب الاتصال، وتتكامل هذه الطرق لتحقيق فعالية وانسيابية عملية الاتصال، ومن أهم هذه الأساليب :

1- الاتصالات الشفوية المباشرة.
2- الرسائل والمواد المكتوبة.
3- الاجتماعات والمؤتمرات.

ويتضح أن المنهج الإسلامي ينوع في لغة الاتصالات حتى تأتى بنتائجها المرجوة وتتناسب مع الفئات والمستويات المختلفة، لذلك تأتى لغة الاتصال وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائح وحكمة وموعظة حسنة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا في ميادين العمل والتعليم والإنتاج وهى اتصالات مفتوحة ومباشرة لا يحجبها حاجب، فالمسلم له حق الاتصال بقيادته وله حق نصحها ومشاورتها، كما أن القيادة عليها واجب نصح الرعية وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فهي اتصالات تتسم بالحرية والانسيابية داخل مؤسسات المجتمع كافة.

خامساً : الرقابة

والرقابة عرفها النظام الإداري الإسلامي منذ نشأته الأولى، وأحاط بكلياتها ومظاهرها في شمول وفاعلية، لم تصل إليها النظم الإدارية الوضعية القديمة أو المعاصرة، وهو الأمر الذي يعزى في الواقع إلى الذاتية الخاصة بالنظام الإسلامي وجوانبه الروحية السامية التي يمتد أثرها إلى بنيان الفرد المسلم وأخلاقياته، لتقيم داخله وازعا طبيعيا تلقائيا، يجعل الخضوع والالتزام بالشرعية الإسلامية يسود كل تصرفاته ويحكمها.

والرقابة في المنهج الإسلامي تشمل ثلاثة أنواع تحددها الآية الكريمة: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: 105) فالله عز وجل رقيب على عباده بصير بأحوالهم، لذلك فالمسلم يراقب الله في نفسه وعمله رقابة ذاتية خالصة ،والرقابة الرئاسية ممثلة في رقابة الرسول صلي الله عليه وسلم فهو قائد جماعة المؤمنين ومسيَّر شئونهم ومثل ذلك كل راع مسئول عن أمر رعيته ومراقب لحالهم، ورقابة المؤمنين على بعضهم البعض وعلى الراعي الذي يُسيّر شئونهم والتيقن من سيره على مبادئ الشرعية الإسلامية وشروط ولايته عليهم وهو ما يعرف بالرقابة الشعبية، والتي خرج من عباءتها نظام الحسبة الإسلامي.

بناء أسرة تربوية مسلمة.

إن للنظام الأسري قانون فطري عام في جميع المخلوقات، فالحيوانات العجماء تقوم حياتها على نظام أسري غريزي، فطرها الله تعالى عليه، ولهذا تجد الأنثى من الحيوان تحبس نفسها على ولدها الجديد، تحرسه وتغذيه بالوسيلة التي فطرها الله عليها وأتاحها لها، وتنظف جسمه كذلك، وإذا كان في حاجة إلى مكان أمين يحتمي به من العاديات، صنعت له ذلك صنعاً عجيباً يناسبه، كالعش الذي تستمر الطيور-إناثاً وذكوراً-زمناً غير يسير تجمع مواده وتحكم بناءه، وقد يكون المناسب له جحراً في الأرض، أو ثقباً في خشب، أو شقا في صخر، فتجد كل حيوان يصنع لأولاه المنزل الآمن الذي يناسبه، مع شدة حراسته والعناية بتغذيته.

وهكذا تجد الحيوانات تسير في الأرض أسراً وجماعات تتكون من تلك الأسر، قد تتصارع فيما بينها، ولكنها تكون يداً واحدة على ما يعتدي عليها من غير جنسها، وهذا أمر فطري يدركه الإنسان في الحيوانات، أليفة كانت أم متوحشة، في الطيور والوحوش وغيرها، والنظام الأسري أشد ضرورة للبشر من سائر الحيوانات، وبخاصة في رعاية الطفل الذي تطول مدة طفولته أكثر من أي حيوان آخر، وحاجته إلى الرعاية والعناية أعظم من أي حيوان، لما يترتب عليها من عمارة الأرض عمارة خير وصلاح، كما أن الإنسان

لا تستقيم حياته بدون أسرة، يعرف فيه الأب والأم والأقرباء، ليحصل بينهم التكافل، ولهذا كان حفظ النسب من الضرورات التي اتفقت عليها أمم الأرض، وإن خرج بعضها على ذلك شذوذاً وجنوحاً.

وإذا كان نظام الأسرة وقانونها ضرورة للبشر كلهم، فإنه أشد ضرورة للمسلمين، لأن الإسلام جاء لتثبيت ما فطر الله الخلق عليه وتأصيله ورعايته. وقد بني على نظام الأسرة أحكام وتشريعات حاسمة لا يجوز التفريط فيها، بل إن في التفريط فيها اختلالاً في حياة الأسرة والمجتمع كله، ولا يمكن تطبيق تلك الأحكام إلا بوجود الأسرة ورعايتها، وفقاً لشريعة الله الخاتمة، التي وضعت قواعد معينة محكمة لقيام الأسرة ورعايتها، وكثير من أبواب الفقه الإسلامي وضع للعناية بأحكام الأسرة من أجل حمايتها وإحكام بنائها، كالنكاح، والطلاق، والرجعة، والعدة، والحضانة، والرضاعة، والولاية، والنسب، والنفقة، وغيرها، فوجود الأسرة ضرورة شرعية، وحاجة فطرية، ولهذا تجد في القرآن الكريم سوراً تكثر فيها أحكام الأسرة وآدابها، كما في سورة البقرة، والنساء، والنور، والأحزاب، والمجادلة، والطلاق، وغيرها من السور التي يذكر فيها شيء ما مما يتعلق بالأسرة، من ذكر أب، وأم، وأخ، وزوج، وامرأة.

قال سيد قطب رحمه الله: (نحن في هذا الدرس مع جانب من دستور الأسرة، جانب من التنظيم للقاعدة الركينة التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، ويقوم عليها المجتمع الإسلامي، هذه القاعدة التي أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية، جهداً كبيراً، نراه متناثراً في سور شتى من القرآن، محيطاً بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى ....وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة وقاعدة التكوين الأولى ومن كل شيء للأحياء جميعاً، وللمخلوقات كافة، تبدو هذه النظرة واضحة في قوله تعالى ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان،(خلقتا زوجين لعلكم تذكرون) (الذاريات: 49)، يا أيها فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم البشرية جمعاء، (الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا) (النساء: 1)، والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ... والطفل الإنسان هو أطول الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى، وذلك أن مرحلة الطفولة، هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب، للدور المطلوب من كل حي باقي حياته. ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في الأرض هو أضخم دور، امتدت طفولته فترة أطول، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، من ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني

وألصق بفطرة الإنسان تكوينه ودوره في هذه الحياة. وقد أثبتت التجارب العلمية أن أي جهاز آخر غير الأسرة، لا يعوض عنها، ولا يقوم مقامها، بل لا يخلو من أضرار مفسدة، لتكوين الطفل وتربيته ..." (سيد قطب، 1986:234).

إن الأسرة المسلمة الصالحة، هي التي يتربى أفرادها تربية إسلامية، تثمر في نفوسهم الأمن والاطمئنان والسكينة والحب، ولا سبيل إلي إلى ذلك إلا بوجود زوجين صالحين تربى كل منهما على العلم النافع، والعمل الصال، ولهذا كان الواجب الأول عند إرادة الزواج، أن يبحث الزوج الصالح عن المرأة الصالحة ذات الدين الحق، حتى يسكن كل منهما إلى الآخر، وتتحقق بينهما المودة والرحمة، وتنشأ ذريتهما على التقوى والخلق الحسن، تحقيقا لقول الله عز وجل: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الروم: 21).

لهذا كان الواجب على الولدين أن تكون تصرفاتهما كلها قدوة حسنة لأولادهما، مع التوجيه النظري والتعليم، فإن التعليم لا ينفع إذا كانت القدوة سيئة، فإن الفعل يتمكن في النفس أكثر من القول، لاسيما إذا كان الفعل عادة يشاهدها الطفل في أبويه باستمرار، وتتعاون القدوة السيئة في المنزل، مع الأفعال السيئة التي شاهدها الولد في خارج المنزل، فينشأ محباً للشر مبغضاً للخير وقد ذكّر الله المسلمين بأهمية القدوة الحسنة بنبيهم صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً" (الأحزاب: 21). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يقتدوا بأفعاله في أهم الأعمال وأفضلها، كقوله لهم في الصلاة: (صلوا كما رأيتموني أصلي ..) (البخاري: 155) وكان يعلّمهم الصلاة بالفعل مع القول. وقال لهم في الحج: (لتأخذوا عني مناسككم) (مسلم: 943). وعندما أمرهم بالإحلال في الحديبية، إذ صدهم المشركون عن الطواف بالبيت، لم تطب نفوسهم حتى أحلّ هو صلى الله عليه وسلم فتبعوه (البخاري، ج3، 182).

وإذا كانت القدوة مؤثرة في الكبار، فإنها في الصغار أشد تأثيراً، ومن هنا كان واجب الوالدين عظيماً في أن يهتما بأن تكون تصرفاتهما إسلامية ينشأ عليها ولدهما، وإلا كانا سبباً رئيساً في انحرافه بانحرافهما أو انحراف أحدهما، وبخاصة الأم التي لا يفارقها الطفل في أغلب أحيانه. قال محمد قطب: (ومرة واحدة من القدوة السيئة تكفي، مرة واحدة يجد أمه تكذب على أبيه، وأباه يكذب على أمه، أو أحدهما يكذب على الجيران .. مرة واحدة تكفي في تدمّر قيمة الصدق في نفسه، ولو أخذ كل يوم وساعة يرددان على سمعه النصائح والمواعظ والتوصيات بالصدق، مرة واحدة يجد أمه وأباه يغش أحدهما الآخر، أو يغشان الناس في قول أو فعل .. مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة الاستقامة في نفسه، ولو انهالت على سمعه التعليمات،

مرة واحدة يجد في هؤلاء المقربين إليه نموذجاً من السرقة كفيلة بأن تدمر في نفسه قيمة الأمانة، وهكذا في كل القيم والمبادئ التي تقوم عليها الحياة الإنسانية السوية.

وقد يغفر الطفل للآخرين أن يكذبوا ويخدعوا ويسرقوا ويغشوا ويخونوا ... أو لا يتأثر به كثيراً، أو لا يتأثر به على الإطلاق، إذا كان يأوي إلى ركن ركين من القيم والمبادئ متمثلة في أبويه، وخاصة حين يبيّن له أبواه بالقدر الكافي من الإبانة والتوضيح أن تلك نماذج سيئة لا ينبغي له أن يحاكيها، مستندين إلى النموذج الطيب الذي يقدمانه هما لطفلهما، ولكنه لا يغفر لأبويه أبداً شيئاً من ذلك، ولا يمكن أن يمر شيء منه بغير تأثر عميق في نفسه، وقد يبقى بقية العمر كله لا يتغير.

ومن هنا كان حرص الإسلام الشديد على أن يكون الأبوان في ذاتهما مسلمين، أي ممارسين لحقائق الإسلام وقيمه ومبادئه، وحرصه على تربية الناس على منهج الإسلام، لكي يكونوا هم القدوة المباشرة لأبنائهما في الفترة التي ينحصر عالم الطفل بهم، فتتكون في نفوس الأطفال –بالالتقاط والمحاكاة – تلك القيم والمبادئ الإسلامية بغير جهد يذكر، وتنشأ في نفوسهم منذ الصغر، فتكون عميقة الجذور، ثم يزيدها التعليم رسوخاً، ويزيدها المجتمع الإسلامي قوة، حتى يكبر الطفل، فيتلقى التعليم، ثم يكبر أكثر فيحتك بالمجتمع، ويأخذ منه ويعطي، فذات الدين هي الركن الركين في إقامة لبيت المسلم والأسرة المسلمة وفي تنشئة الأطفال بالقدوة قبل التلقين على قيم الإسلام ومبادئه منذ نعومة أظفارهم، فتصبح عادة لهم وطبيعة، وتصبح جزئاً من كيانهم ليس من السهل أن يحيدوا عنه، حين تحاول أن تلويهم الأعاصير، وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة في الأب المسلم والأم ذات الدين، فإن كثيراً من الجهد الذي يبذل في تنشئة الطفل على الإسلام يكون جهداً ميسراً وقريب الثمرة في ذات الوقت لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به تشرباً تلقائياً، وستكون تصرفات الأم والأب أمامه في مختلف المواقف مع بعضهما البعض ومع الآخرين، نماذج يحتذيها ويتصرف على منوالها ..) (محمد قطب)، وهذه بعض الأفكار استقيتها من أرض الواقع، ونقلتها من بعض الدارسين في هذا المجال ممن جربها واستفاد منها.

أولاً: تغذيتهم بالعلوم النافعة

1- عقد درس يومي أو أسبوعي-على الأقل- مع أهل البيت، ويستحب التنويع فيه؛ فمرة في السيرة، وأخرى في الفقه، وثالثة في العقيدة، ورابعة في الآداب والسلوك، ومنه يتعلم الأهل الانضباط في الزمان والمكان، ويزيد علمهم، ويزكو عملهم.

2- حفظ القرآن الكريم، وذلك بتحديد آية أو جملة آيات، تعطي كواجب صباحي لهم، عن بريدة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبس يوم

القيامة تاجا من نور، ضوؤه مثل ضوء الشمس، ويكسى والديه حلتان لا يقوم بهما الدنيا، فيقولان بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن).

3- حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينتقى لهم ما يناسبهم، وما تدعو إليه الحاجة.

4- إنشاء مكتبة مقروءة في البيت تناسب جميع المستويات، وتتوافق مع كل الأذواق المشروعة، لتصبح حديقة غناء، يدخل إليها من يريدها فيجد فيها بغيته؛ ففيها ما يناسب طالب العلم، والرجال والنساء والأطفال.

5- القصص وهي يحرك الله بها العقول، ويثبت بها القلوب، وتستنبط منها الدروس والعبر، ويمكن استخدامها كوسيلة دعوية من خلال سرد بعض القصص النبوية، وما ورد في كتب التاريخ على الأهل وخصوصاً في حال التعب البدني والنفسي.

6- الاشتراك في مجلات دورية ذات طابع ومنهج إسلامي تربوي منضبط، سواء كانت أسبوعية أو شهرية أو فصلية أو سنوية، وفي ذلك دعم للمجلة لتستمر في العطاء.

7- المسابقات الثقافية وتكون بإعداد جملة من الأسئلة المناسبة لقدرات ومهارات الموجودين، وعليها بعض الجوائز المناسبة، وأفضل أوقاتها الرحلات، والنزهات خارج المنزل لشغل الوقت بما ينفع، ولزرع روح التنافس عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ولا تحت ورقها)) ((فوقع في نفسي النخلة، فكرهت أن أتكلم وثم أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هي النخلة). فلما خرجت مع أبي، قلت: يا أبتاه وقع نفسي النخلة. قال: ما منعك أن تقولها لو كنت قلتها كان أحب إلى من كذا وكذا (البخاري، ح 6144).

8- إشراكهم في الشعائر التعبدية التي تحصل في المواسم الشرعية، كالمشاركة في عيد النحر بذبح الأضاحي، وتوزيع زكاة الفطر.

9- اقتناء الحاسب الآلي كبديل مناسب لقنوات التخريب، مع وجوب السيطرة عليه، وضبط ما يعرض فيه.

10- الألعاب الترفيهية التي تنمي الذكاء وتقوي الذاكرة وتزيد في المعلومات، وتكسب بعض المهارات الفكرية والعقلية.

ثانياً: ممارسة العمل

قال تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) (طه: 132).

1- الأمر بالعبادة والإلزام بها، والتعويد عليها، مثل الأمر بالصلاة، والسؤال عنها، وتفقد من يقصر فيها، ومحاسبة ومعاقبة من يتهرب منها. قال تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة) (طه: 132). عن عبدالله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع) (أبو داود، ح418).
2- الصيام المشترك من أهل الدار جميعاً، ليس في الفريضة فقط، بل حتى في النوافل، كصيام يومي الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، وست من شوال، ويوم عاشوراء وتاسوعاء، ويوم عرفة لغير حاج، وصيام داود- عليه السلام-.
3- تفطير الصائمين في البيت والمسجد والحارات للأسر الفقيرة، ويتم ذلك بمشاركة جميع الأهل، فالنساء للإعداد والطبخ، والرجال للتوزيع والتقديم.
4- السفر التعبدي للمسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي بالمدينة، والمسجد الأقصى بالشام، قريبا- إن شاء الله- والمكث بجوارها لعدة أيام، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك.
5- تدريبهم على الصدقة والبذل في سبيل الله تعالى وإعطاء الفقراء والمساكين من مال الله الذي آتاهم. فعندما يرى الوالد مسكيناً أو فقيراً، فإنه يعطي أحداً من أهل البيت مبلغاً من المال، ويأمره أن يعطيه للفقير، ويحتسب الأجر يربي فيهم حب البذل والعطاء.
6- مشاركة الجيران في أفراحهم وأتراحهم، بل حتى في الطعام والشراب، وطبعهم على هذا الخلق الجم، وهذه المشاركة الفعالة.
7- تحذيرهم من الحرام، والأخذ على يد مرتكبه، وتذكيرهم بالمراقبة الإلهية لهم، والمعاقبة الربانية على قبح فعلهم، ليستقر في نفوسهم شناعة الحرام، وقبح الإجرام، عن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال: أخذ الحسن بن علي-رضي الله عنهما- تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كخ.. كخ، ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" (مسلم، ح1778). وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا- تعني: قصيرة- فقال: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجتها" (أبو داود، ح 4232).
8- متابعتهم على الأعمال الحميدة والأقوال المفيدة في مسلكهم اليومي، والحرص على تحليهم بالآداب الشرعية كآداب الطعام والشراب وغيرها، ويشمل ذلك تعليمهم إياها، وتعويدهم عليها، عن عمر بن أبي سلمة- رضي الله عنه- قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي

تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك (ابن ماجه، ح3258).

9- تعويدهم على النظافة العامة الداخلية والخارجية مع النفس ومع الآخرين في البيت وخارجه. ما أجمل أن ترى رب أسرة مع أسرته يقومون بتنظيف حديقة عامة مما فيها من القاذورات بعد أن جلسوا فيها وتمتعوا بها!

10- تنمية مهاراتهم وهواياتهم المفيدة، وربطها بالشرع كالسباحة لتقوية الجسم على طاعة الله تعالى، وكالرمي لأنه من إعداد القوة على أعداء الله، وكالسباق للاستعانة به على طرد الخمول والكسل لتنشيط النفس إلى ما يقرب من الله تعالى. عن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:((ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان)). قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((ما لكم لا ترمون)) قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ارموا فأنا معكم كلكم) (البخاري، ح3122).

11- تنبيههم إلى احترام ممتلكات الآخرين والحرص على المحافظة عليها، وعدم التعدي عليهم فيها، سواء في الأمور والأشياء المشاعة للجميع أو الخاصة بالأفراد. عن أنس-رضي الله عنه- قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي عندها النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة، فانفلقت؛ فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: (غارت أمكم) ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه (البخاري، ح4824).

12- أن يعود أهل بيته على التواضع ولين الجانب كالأكل مع الخادم، والجلوس معه، والحديث إليه، وإدخال السرور عليه، والمشاركة له في أفراحه وأتراحه، وخصوصا حال مرضه وسقمه أو حنينه وحزنه. عن أبي هريرة-رضي الله عنها- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله أكلة أو أكلتين، أو لقمة أو لقمتين، فإنه ولي حره وعلاجه) (البخاري، ح5039).

13- عندما يخطئ أحدهم خطأً عظيماً لا يغتفر.. فإن هناك أسلوباً نبوياً للتربية، قد غاب عن كثير من المربين، وهو هجر المخطئ لمدة معينة من الزمن. فبدلاً من القسوة في القول، والغلظة في الحديث،

فلنتعلم أن نقسو عليهم بالكف عن الحديث، والامتناع عن المعاملة. راجع قصة الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك.

14- التربية من خلال الأحداث والوقائع السارة والضارة التي تحدث للأسرة. فعندما يحصل للأسرة كفها أو لأحد من أفرادها ما يكره، فإنه يرجع ذلك للذنوب والسيئات والتقصير في حق الله تعالى. وعندما يحدث لهم ما يفرحهم، ويجلب السرور لهم، فإنه يحيل ذلك لكرم الله معهم وفضله عليهم، ولعل أحدهم أحدث طاعة لله تعالى كان من نتائجها توفيق الله لهم فيما يحبون وصرفه عنهم ما يكرهون. وبذلك تتعلق القلوب بعلام الغيوب في نزول المكروه وحصول المحبوب.

وأكتفي بهذا القدر لرسم صورة في أذهان الجميع بمهمة ممارسة هذه الخطوات حتي تكون نبراساً تربوياً نابعاً من تصور ديننا الحنيف.

المشاركة في وجود البديل الإسلامي التربوي

يجب علي للمصلحين أن يفيقوا من نومهم العميق، لأنه يوجد لدينا حلولٌ وافرة، وأكفٌ رفيقة ليّنة تحتضن الجيل الناشئ في برامج إسلامية مشوقة، ومشاريع تربوية وترفيهية، وبدائل عن تلك المُثُلِ منضبطة بميزان الشريعة، وإنّ من الأولويات الهامة للعمل في حقل التربية الإسلامية: الفهم الناضج للمربيين، ليخرجوا لنا بمحصِّلات مدروسة، ونتائج محروسة في فقه البديل الإسلامي المواكب لروح هذا العصر ومتطلباته، وكيفية إنقاذ هذه الأمَّة المنكوبة من الأزمات التي تحلُّ بها سواء أكانت تعليمية أو تربوية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو عسكرية وغيرها من ألوان المشاكل، وأشكال المحن. وحين يتأمل الإنسان الهدي الربَّاني في القرآن الكريم يجد أنّه-سبحانه وتعالى- ما حرَّم على عباده شيئاً إلَّا وأبدلهم عوضاً عنه ما هو خير منه، بل وصل ذلك إلى الألفاظ فإنَّه تعالى قال (يا أيُّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) (البقرة: 104) فقد نهاهم تعالى عن ذلك لأنَّ فيه شبهاً بيهود حين كانوا يقولون ذلك لمحمد-صلَّى الله عليه وسلَّم- ويقصدون بذلك السخرية به- عليه الصلاة والسلام- فنهى الله صحابة رسوله أن يقولوا هذه الكلمة لمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم وأبدلهم بأن يقولوا له(انظرنا).

كذلك من تدبر سيرة المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم يجد ذلك واضحاً في منهجيته في التربية، فإنَّه كان إذا حرَّم شيئاً أتى بالبديل المشروع مقابل ذلك الأمر المُحَرَّم لأنَّه يعلم أنَّ النفوس ضعيفة، ومجبولة على حبِّ العوض والبديل، وعندنا أمثلة على ذلك:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء بلال إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بتمر برني، فقال له: النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من أين هذا ؟ قال بلال: كان عندنا تمر رديء، فبعت منه صاعين

بصاع لنُطعم النبي صلَّى الله عليه وسلَّم فقال عليه السلام أوَّه أوَّه عين الربا عين الربا لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثمَّ اشتره) (البخاري ح2201، مسلم ح1593).

أنظر كيف أنَّه عليه الصلاة والسلام حين حرَّم فعل بلال رضي الله عنه نقله نقلة توعوية بديلة ومشروعة قبالة ذلك الأمر المحرم، وتلك صفة العالم الرباني، والبصير بالواقع الذي حوله ولهذا قال الإمام ابن القيِّم في ذلك:(من فقه المفتي ونصحه إذا سأله المستفتي عن شيء فمنعه منه، وكانت حاجته تدعوه إليه، أن يدلَّه على ما هو عوض له منه، فيسد عليه باب المحظور، ويفتح له باب المباح، وهذا لا يتأتى إلَّا من عالم ناصح مشفق قد تاجر الله وعامله بعلمه، فمثاله في العلماء مثال الطبيب النَّاصح في الأطباء يحمي العليل عمَّا يضره، ويصف له ما ينفعه، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان، وفي الصحيح عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنّهَ قال: (ما بعث الله من نبي إلا كان حقَّاً عليه أن يدلَّ أمَّته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم) وهذا شأن خلق الرسل وورثتهم من بعدهم، ورأيت شيخنا - قدَّس الله روحه- يتحرَّى ذلك في فتاويه مهما أمكنه ، ومن تأمَّل فتاويه وجد ذلك ظاهراً فيها) (ابن قيم: 1973:121).

فهذا هديه عليه الصلاة والسَّلام في ذلك، حيث أنَّه لا يرضى بوقوع المنكر، ولا أن يؤلف، ولكنَّه عليه الصلاة والسَّلام يبيِّن خطر الشيء المحرَّم، ومن ثمَّ يبين البديل الشرعي عن ما حرَّمه الله، ومن هنا فطن علماء الإسلام لتوضيح هذه القضيَّة في مدوناتهم، ورسائلهم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- فقد بيَّن بأنَّ المبتلى بالمنكر أو البدعة فإنَّه يتوجب على ناصحه أن يدعوه للإقلاع عن هذا الأمر المحرَّم ولو كان في ظاهره الخير، ومثَّل لذلك ابن تيمية، بالبدعة فقال:(إذا كانت في البدعة من الخير فعوِّض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان، إذ النفوس لا تترك شيئاً إلَّا بشيء...فالنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنَّما الترك مقصود لغيره) (ابن تيمية: 1999:125).

ومن هذا المنطلق فأمتنا تحتاج لبدائل كثيرة في عدَّة مضمارات، وتحتاج للبدائل المفيدة لأننا علمنا مكمن الدَّاء، وموطن الخلل، فليت دعاة التربية والتغيير أن يستشعروا المسؤولية الفردية والجماعية، والتأهل للإنقاذ وللمشاريع الإصلاحيَّة التربوي، ويبينوا طريق النَّجاة، والحلول المثمرة، والبدائل النافعة والإيجابيَّة، وفي الوقت نفسه فنحن لا نريد حلولاً مستوردة من الغرب الكافر، ولا بدائل غير شرعيَّة، أو فيها تنازلات عن سنَّة خير البرية، فمعاذ الله أن ينصح بذلك وقد قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله-شيئاً من هذا القبيل ثمَّ أعقبه قائلاً: (لكن لا يجوز لأحدٍ أن يغيِّر شيئاً من الشريعة لأجل أحد) (ابن تيمية: 1999:132).

ومن ذلك نقول بأنه: يجدر بأهل التربية أن لا يخاطبوا الناس من برج عاج، أو صومعة فكرية، بل ينزلوا في ميدان الناس، وواقع البشرية، ويتداخلوا معهم، ويتأملوه حقَّ التأمل فما كان فيه من خير أثنوا عليه وأشادوا به، وما كان فيه من خطأ فلينبهوا الناس له، ويرسموا لهم طريق الصلاح، ويزنوا جميع الأمور بمعيار الشريعة، ويعطوهم البدائل المباحة بقدر الإمكان، وإيجاد الحلول والمخارج، ولهذا فإنَّ التربوي لن يغفل عن دراسة نفسيَّات النَّاس، وإعطاء كلَّ ذي حقٍ حقَّه من الحكم الملائم له.

ومن هنا نستنتج أن المربي يعطيهم من البدائل المباحة الَّتي تجعلهم يتناسون ما كانوا عليه، متدرجاً بهم بهذه الطريقة إلى مرحلة القناعة والطمأنينة بما هم فيه، ومن أقوى ما يحتجُّ به لذلك، ما قاله عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه يوماً منكراً عليه عدم إسراعه في إزالة كلِّ بقايا الانحراف والمظالم والتعفية على آثارها ورد الأمور إلى سنن الراشدين: مالك يا أبتِ لا تنفذ الأمور؟ فو الله ما أبالي، لو أنَّ القدور غلت بي وبك في الحق!!

وتأمل كيف كان جواب الأب الفقيه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (لا تعجل يا بني، فإنَّ الله ذمَّ الخمر في القرآن مرتين وحرَّمها في الثالثة، وإنِّي أخاف أن أحمل النَّاس على الحقِّ جملة فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة) (الشاطبي: 1997)، ولهذا فإنَّ التدرج في الوصول إلى الحقِّ بهذه التربية سببٌ أكيد لقناعة المدعوين، وليأخذوا بهذه الأحكام بتمام الرضى والفهم العميق لمقاصد الشريعة الإسلامية، قال الإمام ابن القيِّم(إنَّ حكمة هذا التدريج ؛ التربية على قبول الأحكام، والإذعان لها، والانقياد لها شيئاً فشيئاً) (ابن قيم، ج3 ص184).

خاتمة

تناولنا في بحثنا هذا الجودة التربوية في الإسلام، ومن خلال الدراسة التي اجريناها في هذا البحث تحصلنا على بعض الاستنتاجات التي تتخلص في التالي:1-وضوح بارز للمنهج الإسلامي لبيان التربية بمعالمها الإسلامية المتنوعة.2-لم تكن هذه المبادئ الموجودة في التربية الإسلامية عبارة عن نظريات في أذهان الناس بل كانت لها ممارسات عملية بدأ بها المصطفي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الأطهار منذ ذلك الحين.3-التربية الإسلامية تطالب كل مسلم ببذل ما في وسعه لإنجاز عمله ولا يكلفه أكثر ما في وسعه.4-وحتي ترتقي التربية إلي أعلي مستوياتها لابد أن تمر بخصائص تجعلها في تحسن مستمر من وضوح البداية إلي نهاية التحسين والكمال.5-إن ركن الجودة يجعل منطلق الإسلام واضح المعالم، فالقيادة والتخطيط والتنظيم والاتصال والرقابة هو سلوك التربية بواقعها والتدرب علي ممارستها.6-بناء

الأسرة حث الإسلام عليها ورغب فيها فجعل لكل حركة من حركات الأسرة عبارة عن أسلوب تربوي فعال لو استخدم بطريقته الصحيحة.7-والبديل الإسلامي التربوي موجود منذ القدم، فهي أمة تحتاج لبدائل مفيدة، لأننا نعلم مكمن الداء وموطن الخلل فاستشعار المسؤولية يعجل بالحلول المثمرة.

مراجع

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد. 1418هـ *السياسة الشرعية*. المملكة العربية السعودية: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد. 1999. *اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم*. المحقق: ناصر عبد الكريم العقل. بيروت: دار عالم الكتب.

ابن خلدون. 1996. *المقدمة*. تحقيق: درويش الجويدي. صيدا-بيروت: المطبعة العصرية.

ابن قيم الجوزية، ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. 1989. *زاد المعاد في هدي خير العباد*. تحقق نصوصه: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة؛ الكويت، مكتبة المنار الإسلامية.

ابن قيم الجوزية، ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. 1973. *إعلام الموقعين عن رب العالمين*. بيروت، لبنان: دار الجيل.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. *بدائع الفوائد*. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

أحمد، أحمد ابراهيم. 2003. *الجودة الجودة الشاملة في الإدارة التعليمية والمدرسية*. الإسكندرية: دار الوفاء.

البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل. 1400هـ *الجامع الصغير*. القاهرة: المكتبة السلفية.

البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل. 1984. *صحيح*. استانبول: المكتبة الإسلامي.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. 1998. *سنن الترمذي*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

حنبل، أحمد. 1998. *المسند*. الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.

خميس، محمد عبد المنعم. 1990. *الإدارة في صدر الإسلام–دراسة مقارنة*. القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الكتاب التسعون.

الرازي، أبوعبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. 2000. *مفاتح الغيب*. بيروت: دار الكتب العلمية.

سيد قطب. 1986. في ظلال القرآن. جدة: دار العلم للطباعة والنشر.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي. 1997. *الموافقات*، دار ابن عفان.

الشامي، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي، وأبو القاسم الطبراني الروض الداني. 1985. *المعجم الصغير*. لمحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير. بيروت: المكتب الإسلامي؛ عمان: دار عمار.

الشيخ، بدوي محمود. 2000. *الجودة الشاملة في العمل الإسلامي*. القاهرة: دار الفكر العربي.

الطويرقي، نوال سعد. 2002. *العلاقات الإنسانية في السيرة النبوية وتطبيقاتها في الإدارة المدرسية*. جدة: دار الأندلس الخضراء.

عبد الباسط، فرناس. *التنظيم بين الإدارة الإسلامية والإدارة العامة*. القاهرة.

فايد، عبد الحميد بهجت. 1982. *الإدارة في الإسلام– نماذج من الفكر والتطبيق*. مجلة المسلم المعاصر، ع(30)،ابريل.

القرضاوي، يوسف. 1983. الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. مجهول سنة النشر. *الجامع لأحكام القرآن*. بيروت: دار الكتب العلمية.

قطب، محمد. منهاج التربية الإسلامية، موقع الشبكة الاسلامية الالكتروني.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. 2001. *السنن الكبرى*. بيروت: مؤسسة الرسالة.